في علاقة السياسي بالأديب

د. عبد النبي اصطيف

بين السياسة والادب ، بين ممارس السياسة (السياسي) ، وممارس الادب (الاديب) وشائج لاسبيل الى انكارها أو تجاهلها . ومهما كان منظور المرء في مناقشته لقضية ارتباطهما فانه لايمكن الا ان يقر بأن السياسة والادب كليهما نشاط انساني اجتماعي ، فعالية مرتبطة بالآخر The Other الذي هو باستمرار ماثل ضمنا أو على نحو صريح في ممارسة كل من السياسي والاديب .

والواقع ان هذه العلاقة بين السياسة والادب تبعا للمنظور الماركسي (الذي يرى في العامل الاقتصادي المحرك الاساسي المحدد ـ وان لم يكن العامل الوحيد ـ للنشاط الفكري للانسان) **نظرية وتاريخية معا: نظرية لكون كل منهما جزءا اساسيا من البنية الفوقية يتبادلان التاثير فيما بينهما من جهة ، ويخضعان لتاثير البنية التحتية او القاعدة .**

وتاريخية يشهد تاريخ النشاط الفكري الانساني عليها .

ولهذا ربما وجد المرء بعض الغرابة في لجوء شيخ الماركسيين العرب في لبنان الصديق الدكتور حسين مروة الى استحضار فكر ارسطو في دراسته للعلاقة بين السياسي والاديب في المجتمع العربي في محاضرته الشيقة التي اتحف بها جمهور اللاذقية ودمشق في نهاية الشهر الاخير من العام المنصرم بدعوة من اتحاد الكتاب العرب بدمشق(١).

وربما كان من اهم ما يلفت النظر في هذه المحاضرة هو انها ، في تعرضها لجملة امور تتصل بالعلاقة القائمة نظرا وتاريخا بين الادب والمجتمع في الحياة العربية عبر العصور ، **اغفلت الامر الاساسي الذي يفترض بها** ان تعالجه وهو « علاقة السياسي والاديب في المجتمع العربي». مما أوقع الدكتور مروة في اشكالات عديدة اساسها فيما يبدو لي عدم وضوح تصوره لموضوع بحثه اولا واضطراب عرضه لما بدا له انه جوهر هذا الموضوع ثانيا . ورغم ذلك كله فان هذه المحاضرة مثيرة للتفكير في الموضوع والكتابة فيه ، وقد كانت بالفعل الحافز الرئيسي على تدوين مجموعة من الافكار والخواطر عن علاقة السياسي بالاديب في المجتمع العربي اقدمها للقارىء العربي مقدمة لدراسة هذا الموضوع الهام والحساس ، اردتها ان تكون هوامش على محاضرة الدكتور مروة الهامة ، تاركا امر مناقشة المحاضرة نفسها الى المقالة التالية .

الحقيقة ان العلاقة بين السياسي والاديب في اي مجتمع يمكن ان تكون واحدة من ثلاث :

١ ــ علاقة تطابق ، وذلك عندما يكون السياسي اديبا ، او الاديب سياسيا ، اذ يغدو الادب عندها موظفا لخدمة التطلعات السياسية لصاحب العلاقة ، وتصبح السياسة مطية لتحقيق الطموحات الادبية له .

٢ ــ علاقة تكامل ، وذلك عندما توافق رؤية السياسي وممارساته تطلعات الاديب المتصلة بمجتمعه .

٣ ــ علاقة صراع ، وذلك عندما تختلف رؤية السياسي وممارساته عن رؤية الاديب وتطلعاته . وبالطبع فان حدة الصراع بينهما تتحدد بمقدار درجة الاختلاف هذه .

والواقع انه ينبغي ان ينظر الى هذا الصراع على **انه مؤشر ايجابي وصحي في أي مجتمع . فالاديب** ، أي اديب ، **ملتزم اولا واخيرا بمجتمعه . وليس** من الضرورة **ان يمتد التزامه هذا ليشمل النظام السياسي السائد في هذا المجتمع الا في حالة تعبير هذا النظام عن تطلعات الغالبية الساحقة من ابناء هذا المجتمع** . من هنا كنا نجد دائما الصراع الداخلي ينتاب الادباء من الاعضاء العاملين في التنظيمات السياسية بين التزامهم بمجتمعهم من جهة ، وبين التزامهم بالتنظيم السياسي من جهة اخرى ، ورأينا ان هذا الصراع غالبا ما كان ينتهي اما بصمت الاديب ، واخلائه الساحة الادبية متفرغا لساحة السياسة،او انشقاقه عن التنظيم السياسي واتخاذ ادبه فيما بعد سلاحا لزعزعة مرتكزاته الفكرية الى غير ذلك .

وهناك امر آخر وهو ان **الاديب الحق** (ولكل اديب حق رؤية ما ، حتى لو لم تكن رؤية واضحة ومحددة) **يتطلع باستمرار نحو الافضل، ويرفض لذلك الواقع بسبب هذا التطلع** . ان هذا الطموح طموح انساني مشروع ، وان ذاك الرفض رفض انساني مشروع أيضا ، يمارسهما

الاديب ، ويباركهما مستهلكو أدبه ، اذ هو رائد تطلعاتهم نحو ما هو افضل وانقى على جميع المستويات .

وهذا ما يضع الاديب في موقف مباين لموقف السياسي . ان السياسي ـ **مالم يكن ثوريا ـ** يعنى اول مايعنى **بالاستقرار والحفاظ على الوضع القائم** لانهما يكفلان له الاستمرارية في ممارسة دوره من جهة، وتحقيق تطلعاته من خلال تسنمه للسلطة من جهة اخرى . وهذان مشروعان ايضا من وجهة نظر السياسي بالطبع ، ومتفهمان من وجهتي نظر الاديب وابناء المجتمع من ناحية اخرى . **فالمجتمع اي مجتمع بحاجة الى درجة معتبرة من الاستقرار يستطيع من خلالها ان يفكر في امر نفسه ، ويتانى في التفكير ، وأن يخطط بعد ذلك لمستقبله ، وينفذ مايخططه ، ويرقى ويتطور .**

والحقيقة ان **عبقرية السياسيين البارزين في تاريخ البشرية كانت تتجلى دوما في خلق نظام يجمع مابين عنصري الثابت والمتغير : الثابت الذي يكفل الاستقرار والاستمرارية للمقومات الاساسية للمجتمع، والمتغير الذي يضمن ارضاء نزعة التطوير والتحسين الموجود لدى الكائن البشري .**

من هنا فان القضية المطروحة ليست هي اثبات علاقة السياسي بالاديب في المجتمع بشكل عام ، والمجتمع العربي بشكل خاص ، بمقدار ما هي تحديد **لطبيعة** هذه العلاقة من خلال :

١ ـ استقراء انماطها الموجودة بالفعل عبر قراءة مزدوجة للتاريخين السياسي والادبي في المجتمع العربي من جهة ؟

٢ ـ واستشراف أنماطها الممكنة بالقوة ، وذلك **برؤية مستقبلية،** تأخذ بعين الاعتبار واقع الامة العربية والتحديات المختلفة التي تواجهها على مختلف المستويات ، وتطلعاتها ايضا من جهة اخرى .

* * *

وربما كان السؤال الاساسي الاجدر من غيره بالتصدي هو :

هل الفعالية السياسية **فعالية تابعة للفعالة الادبية** ، أم ان **الفعالية الادبية هي الفعالية التابعة للفعالية السياسية (٢) ؟.**

في الاجابة عن سؤال كهذا ينبغي للمرء ان يتذكر ان الفعاليتين السياسية والادبية **فعاليتان انسانيتان** . ولكنه ينبغي ان يتذكر ايضا انهما **متمايزتان** . وفي دراستنا لطبيعة العلاقة بينهما يجب ان ننظر في تشابههما وفي تمايزهما معا .

ان الادب فعالية انسانية ، كما قدمت ، ولكنه يتجسد أساسا في **انشاء لغوي** ، يقرؤه الناس اذ ينشر بصورة من الصور . ان هذه **الخصيصة المحددة لطبيعة الادب** تجعله في موقع متميز حقا . وبالطبع فان الانشاء اللغوي الذي توظف فيه اللغة على نحو معين ـ جمالي اساسا ـ يمكن ان يتخذ أشكالا مختلفة نصنفها عادة تحت نوع ادبي معين او آخر ، ولكنها جميعا تبقى انشاء لغويا له مواصفات معينة .

ولكن ماذا عن اهمية هذا الانشاء ؟

ان اهمية الادب **لايمكن** ان تقاس بكونه مجرد انشاء لغوي توظف فيه اللغة توظيفا جماليا ، **فنحن غالبا مانلجأ الى مقاييس فوق ادبية، اجتماعية ، او سياسية ، او فكرية ، او ثقافية ، او حضارية ، او نفسية ، او دينية** الى غير ذلك ، في معرض الحديث عن اهمية عمل ادبي ما . ومعنى هذا ان **المقاييس السياسية يمكن ان تكمن وراء اهمية العمل الادبي ، اي ان البعد السياسي للتجربة الادبية هو مايعطيها عظمتها ويحدد قيمتها احيانا** . وبعبارة اخرى ان الادب في هذه الحالة **يتكيء على المضمون السياسي في اهميته ، ويدين له دون غيره بهذه الاهمية .**

على اي حال اننا ينبغي أن نتذكر دوما اننا نتحدث عن الادب: صحيح ان « **عظمة الادب لايمكن** ـ كما يقول اليوت ـ **أن تحدد بالمقاييس الادبية وحدها** ، الا اننا يجب ان نتذكر « **أن تحديد ما اذا كان الادب ادبا أولا ، لايكون الا بالمقاييس الادبية وحدها** »(٣) .

واذا ماانتقل المرء الى السياسة فانه يجد انها فعالية **انسانية** ايضا . ولكن تجلياتها تختلف عن تجليات الادب . وممارستها تتنوع تنوعا ملحوظا ، وحصيلتها في النهاية قرار سياسي يحقق مصلحةمعينة يصدر من خلال مؤسسة معينة ، وينفذ من قبل المؤسسة نفسها ، او مؤسسة اخرى ترتبط معها بالبنية الكلية للمجتمع الذي يمسه هذا القرار .

ومايهمنا في اشكال الممارسة السياسية وتنوعها ، شكل واحد هو **الشكل الانشائي** ، اي **الانشاءات اللغوية السياسية التي تقترب** ـ اذ تستخدم الاداة نفسها ، **وهي اللغة الطبيعية من الادب** .

والواقع ان الصلة هنا وثيقة بين هذا الشكل من اشكال الممارسة السياسة وبين الادب ، وهما يتبادلان التأثير على نحو صريح وآخر ضمني : وبشكلمباشر وآخرغيرمباشر .بلان الامريصلفي كثيرمنالاحيان الى دراسة بعض **الكتابات السياسية على انها ادب ربما تطغى فيها الرسالة السياسية ، ولكنه يتمتع بجميع المقومات التي نتطلبها في اي ادب** .

والواقع ان احد الاسباب الكامنة وراء هذا الامر هو ان **صانع الانشاء السياسي يستخدم الكثير من تقنيات الادب واساليبه واعرافه واجراءاته وذلك بغرض تسهيل ايصال رسالته الى الجمهور المتلقي له ، واقناعه بها ، ومن ثم تعبئته كقوة فاعلة من أجل تحقيق الرؤية التي يتضمنها هذا الانشاء ، هذه الرؤية التي هي بحاجة دوما**

الى اداة تنقلها من طور القوة الى طور الفعل ، من مرحلة الامكان الى مرحلة التحقق .

وكما تقترب السياسة من الادب ، في هذا الشكل المحدد من الممارسة السياسية ، شكل الانشاء اللغوي السياسي ، فان **الادب يقترب من السياسة عندما يحمل رؤية ما للمجتمع الذي ينتج فيه ، رؤية قد يتبناها السياسي ويعمل على تحقيقها من خلال المؤسسة السياسية التي يمارس نشاطه من خلالها .**

والحقيقة أن هذا **البعد السياسي في الادب هو مكمن التجاذب والتنافر بين السياسي والاديب** ، خاصة وان العمل الادبي يحتمل في كثير من الاحيان **تفسيرا سياسيا معينا** قد يروق او لايروق السياسي، وقد يتفق مع رؤيته للامور ومنظوره للاشياء او يختلف معهما. من هنا كان سعي السياسي الحثيث الى ممارسة نوع من **الرقابة على الانتاج الادبي** ليكفل سيادة نوع معين من الرؤية السياسية والاجتماعية للاوضاع السائدة . ومن هنا ايضا كان سعي الاديب الى **الافلات من هذه الرقابة** بكل اشكال الترميز ، والاستعارة الموسعة ، والاساطير، والخرافات ، وما الى ذلك من اساليب التعبير غير المباشرة .

ومعنى هذا ان **السياسي ضمنا يسعى الى استخدام الاديب،** يوظفه من اجل تحقيق مسعاه السياسي ، ويفيد منه في تعبئة القوى السياسية الموجودة على الساحة ودفعها لانجاز اهدافه وكذلك فان **الاديب يسعى ضمنا الى استخدام السياسي** والافادة من التسهيلات والمؤسسات المرتبطة به،من اجل دفع اغراضه الادبية وفوق الادبية Extra - Literary وتسهيل مهمة سيادة فكر ادبي معين ، يتبناه ، في المشهد الثقافي ، فكر يسوغ ايتاجه ويرفع منه ، ويسمو بقيمه .

←

هـوامش

(١) انظر د. حسين مروة

« علاقة السياسي بالاديب في المجتمع العربي » ،

البعث (دمشق) ، العدد ٦٦٥٠ ، ٢٠ ـ ١٢ ـ ١٩٨٤ ، ص٩ ، و العدد ٦٦٥٢ ، ٢٢ ـ ١٢ ـ ١٩٨٥

وقد أعيد نشرها في الكاتب العربي (دمشق) ، السنة الثالثة ، العددالتاسع، ١٩٨٤ ، صص ٧ ـ ١٧ .

(٢) من الجدير بالذكر ان الدكتور حسين مروة يشير الى طبيعة هذه العلاقة اشارة مقتضبة في معرض اجابته على سؤال وجه اليه من قبل السيد وائل بركات وهو : « هل يمكننا أن نقول بان السياسة او الادب ، احدهما يتبع الاخر ؟ » .

يقول مروة :

« لا أوافق على مسالة التابع والمتبوع في الادب والسياسة ، فلا السياسة تابعة للادب ولا الادب تابع للسياسة . فلكل منهما ميدانه ، واذا اجتمعا في عمل ادبي ، فالابداع الفني هو الاساس ، لكن لا على كونه تابعا أو متبوعا بل علىاساس ان العمل الابداعي يجب ان يكون اولا ، وبالذات عملا فنيا جماليا ، والفكر السياسي الذي يعبر عنه هو مادته ومضمونه : المتحولان الى تشكيل فني جميل » .

وانظر : وائل بركات ، « لقاء مع الدكتور حسين مروة » ،

البعث ، العدد ٦٦٥٣ ، ٢٤ ـ ١٢ـ١٩٨٤ ، ص ٩

(٣) انظر ت .س. اليوت ، « الدين والادب » في ويليرسكوت ، خمسة مداخل للنقد الادبي ، كتب كولير ، نيويورك ولندن ، الطبعة السابعة ١٩٧٤ ، ص ٤٣ .